

تجربة تونس في مكافحة الوباء تثير اهتمام الغرب

احترافية النظام الصحي التونسي رجحت الكفة قياسا بالجزائر ودول جنوب أوروبا وبريطانيا

تعطي قصة نجاح تونس في مكافحة وباء فايروس كورونا المستجد قياسا ببقية الدول المحيطة بها في شمال أفريقيا، وذلك بالنظر إلى الإمكانيات البسيطة التي تمتلكها والظروف الغامضة التي تحيط بالمشهد السياسي، لحة عن هذه التجربة، التي تعد أكثر جدارة بالاهتمام عندما تتم مقارنتها بوضعية دول الضفة الشمالية للبحر المتوسط وبريطانيا.

كما أنه مع كل نقاط الضعف في الديمقراطية، التي لم ترس جنورها حتى الآن، سمحت حرية التعبير بإجراء نقاش حيوي داخل المؤسسة الطبية وفي وسائل الإعلام.

وظهر أطباء القلب مثل فوزي حداد، الذي يمارس مهنته في مستشفى عبد الرحمن مامي التعليمي في ضاحية أريانة بتونس العاصمة، على التلفزيون لأول مرة، وحذر كبار السن الذين يعانون من مشكلات في الجهاز التنفسي وغيرها من المشكلات الطبية ونصحهم بأن يبقوا في منازلهم. وقال حينها "كل مرضي فعلوا ذلك، وأصدر زملائي نفس التحذيرات، وكانت الثقة التي أظهرها الناس في الأطباء رائعة".

وتتميز تونس بوجود عدد كبير من الشباب، حيث متوسط العمر 31، بينما يبلغ متوسط العمر في المغرب 26، وفي الجزائر 25، وهما دولتان سجلتا ارتفاعا في حصيلة الإصابة بالفايروس.

ويتمثل الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 65 عاما في المئة من إجمالي سكان تونس وعادة ما يتم الاعتناء بهم داخل الأسرة. ولا يوجد الكثير من نزل كبار السن الخاصة أو في بقية شمال أفريقيا. وقبل بداية الأزمة وتحديدا في منتصف يناير الماضي استتعترت وزيرة الصحة في ذلك الوقت سنية بالشخير بشكل مبكر خطورة ما يحدث في الصين وذلك خلال اتصال مع نظيرتها الفرنسية آنذاك أنيس بوزين، التي حاولت طمأنة بالشخير.

لكن، من وجهة نظر التونسيين المطعنين الذين تحدثت معهم، كان اثنان من كبار موظفي الصحة، قد لعبا الدور الأكثر أهمية، وهما الدكتورة ناصف بن علي، وهي مديرة المرصد الوطني للأمراض الجديدة والمستجدة، وقد ترأست هذه المؤسسة، التي بدأت العمل في 2008 وتعاونت عن كثب مع ألمانيا في وضع خطة للأمن البيولوجي تشمل البشر والحيوانات والبيئة، منذ 2015.

أما الوظيفة الثانية فهي الدكتورة أمل بن سعيد، وهي مديرة الرعاية الصحية الأساسية في وزارة الصحة، وهي تعمل بمسيرة مهنية متميزة تشمل العمل مع اليونيسف وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، لكنها استقالت من منصبها أواخر العام الماضي احتجاجا على ما شعرت بأنه مواقف سياسية من قبل العديد من الوزراء والقادة السياسيين.

ومع ذلك، استمر فريق كبار الأطباء، الذي تحول بحلول فبراير الماضي إلى لجنة علمية لتقديم المشورة لوزير الصحة، في أداء دوره.

ويعتبر هذا النجاح أكثر شيء جدير بالملاحظة عندما تتم مقارنته بأرقام دول جنوب أوروبا وبريطانيا، فثمة عوامل تفسر لماذا مرت تونس بالوباء حتى الآن بسلا م مقارنة بغيرها، رغم الاضطراب السياسي وتباطؤ النمو، ناهيك عن تهديد الإرهاب والفساد المستشري، الذي استمر تسع سنوات بعد الإطاحة بنظام الحكم الاستبدادي للرئيس زين العابدين بن علي.

نظام صحي كفو

لقد مر على تونس 12 وزيراً للصحة منذ عام 2011، ولكن كما يقول أحد كبار رجال الأعمال في تونس "نظام الحكم في البلاد سيء لكنه يدار بشكل جيد". ورغم تضخم أعداد الذين تم توظيفهم في الدرجات المتدنية منذ ذلك التاريخ، لا تزال الخدمة المدنية تدار باحتراف. ولغعدو بعد الاستقلال، كان ذلك موضع حسد العالم العربي أجمع.

وعندما وصلت أخبار الوباء إلى تونس في بداية العام، كانت المؤسسة الطبية الأسرع من حيث رد الفعل عن نظيراتها في أوروبا، ناهيك عن الجزائر المجاورة.

ورغم فقدان المثان من الأطباء في أوروبا بسبب الاضطرابات في السنوات الأخيرة وتراجع خدمات المستشفيات العامة وما يقابلها من نمو في العيادات الخاصة، والتي لا يستطيع المواطنون العاديون تحمل تكاليفها، فإن الإذارة المبكر لنظام الصحة العامة في تونس نجح.

وفي ظل الانكماش الاقتصادي العالمي نتيجة تفشي وباء كوفيد - 19، ثمة ملفات كبرى تنتظر الرئيس المقبل للمنظمة، في طليعتها الإعداد للمؤتمر الوزاري عام 2021 وإعادة إطلاق المفاوضات وتسوية الخلافات القائمة بين المنظمة والولايات المتحدة.

وهددت واشنطن بالخروج من المنظمة التي تتهمها بمعاملتها بشكل "غير منصف"، مطالبة بإعادة تنظيمها وهي تشمل منذ ديسمبر الماضي محكمة الاستئناف التابعة لهيئة تسوية النزاعات في المنظمة. ويرى الاستاذ في العلاقات الدولية، مانفرد إلسغ من معهد التجارة العالمية في بيرن، أن واشنطن تريد أن يشارك المدير العام المقبل المخاوف الأميركية، والكثير منها تعني الصين. وبما أنه يتم اختيار المدير العام بالتوافق فإن هذا الموقف الصارم يعقد الاختيار.

ويعتقد محللون أن التوترات الجيوستراتيجية في مناطق كثيرة من العالم والتسييس المتزايد لانتخابات رؤساء المنظمات الدولية قد تعقد عملية تعيين خلف لأزيغيدو.

ومن المقرر أن تجري منظمة التجارة العالمية من 7 إلى 16 سبتمبر سلسلة أولى من المشاورات مع كل من أعضائها على حدة بهدف استيعاب المرشحين الثلاثة الأقل حظا للحصول على دعم توافقي. وستلها سلسلتا مشاورات على الأرجح في أكتوبر ونوفمبر. إلا أن عجز الدول الأعضاء على التوافق في أواخر يوليو لتعيين



خبرة الطواقم الطبية أحدثت الفارق

ومثل هؤلاء النساء المحترفات في جميع مناحي الحياة في هذه الدولة، وفي كثير من الأحيان أكثر من الرجال، فإنهن لا يخشين التحدي بارأهن أمام الحكومة أو المسؤولين الأجانب، حيث أن المسؤولين التونسيين لا يفوتون فرصة الأخذ بنصائحهم، وقد يبدو ذلك مفهوما إذا افترضنا التونسيون على التجارة وتبادل الأفكار والثقافة منذ تأسيس قرتاج قبل أكثر من 2800 عام.

قبل بداية الأزمة بشهرين استتعترت الأجهزة الصحية في تونس مبكرا خطورة ما يحدث في الصين

ورغم تقليص الاستثمار العام في المستشفيات منذ 2011، لأسباب ليس

أقلها تمويل الحرب ضد الإرهاب التي حفرها التدخل العسكري الغربي غير الحكيم في ليبيا، فقد أثبتت هذه الدولة أن إحدى الركائز الأساسية للحكومة، وهو النظام الصحي، يعمل بشكل جيد في أوقات الأزمات.

ونظرا لأن قيصر السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي جوزيب بوريل يشجع على إعادة دعم بعض الصناعات الدوائية من آسيا إلى دول أقرب إلى أوروبا، فقد لا يتذكر هو والشركات الأوروبية والأميركية الكبرى أن تونس لديها الأطباء والفنيون المدربون جيدا الضروريون لعمليات التوسع في صناعة الأدوية الحديثة.

وتقوم الحكومة والقطاع الخاص حاليا بوضع اللمسات الأخيرة على خطة لتوسيع إنتاج الأدوية، ويأملون أن يشكل القطاع 40 في المئة من الصادرات بحلول عام 2025، مقارنة بنحو 18 في المئة اليوم.

كما تشمل الخطة التوسعية زيادة إنتاج الأدوية محليا من 51 في المئة إلى 62 في المئة وهذا من شأنه أن يخلق 4 آلاف وظيفة، فضلا عن أنه يمكن إنتاج الإمدادات الطبية الأخرى ولاسيما الملابس في بلد يتمتع بصناعة المنسوجات والإلكترونيات المزدهرة.

ولذلك، ليس من المفاجئ أن يظهر استطلاع نُشر مؤخرا أنه من بين المؤسسات الأربع الأولى التي يقف بها التونسيون، في خطوة ستكون غير مسبوقة في حال حصلت.

ففي عام 1999، عندما لم تتمكن الدول من التوافق، فضلت تعيين مديرين كل منهما لولاية قصيرة تستمر ثلاث سنوات، لكن هذه التسوية لا تعجب الخبير إلسغ نظرا إلى المهمة الضخمة التي تنتظر خلف أزيغيدو حيث يقول إن "تسخنا تولي ولاية قصيرة قد يُنظر إليه على أنه ضعف منذ البداية".

الرشيد في مسائل الرعاية الصحية.

والتي جانب ذلك، تفتخر تونس بصناعة صيدلانية ومختبرات صغيرة ولكنها متقدمة، فهي تنتج ما يزيد قليلا عن نصف الأدوية التي تستهلكها البلاد، وهي واحدة من أعلى النسب في كل أفريقيا، وتقريبا لا وجود للأدوية المربحة، حيث أن مؤسسة فارماسي سنترال تتحكم في كل هذا جيدا.

واليوم تقوم المؤسسة بتصنيع مجموعات اختبار فايروس كورونا الخاصة بها، رغم أنها تستورد بعض المكونات النشطة من الخارج. وقد أثبت هذا النظام البيئي الطبي والصيدلاني أنه لا يقدر بثمن، كما هو الحال مع الحوار المستمر بين وزارة الصحة والحكومة والقطاع الخاص ومعهد باستور.

ومن هذا المنطلق يجب أن يكون رد الفعل على جائحة كورونا في سياق دولة تتمتع فيها المرأة بحقوق أكثر من أي دولة أخرى في المنطقة، وذلك بفضل الأب المؤسس لتونس الحديثة، الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة.

وتلعب المرأة التونسية دورا رئيسيا في التعليم والرعاية الصحية والسياسة، منها الرئيسات التنفيذي لشركات الأدوية، مثل سارة المصمودي رئيسة شركة ترياقي، ونجلاء حمدي التي ترأس شركة سانوفي، والمهنيات ذوات المهارات العالية مثل الطبيبتين بن عليا وين سعيد، وهن، بطريقة ما، "بنات بورقيبة" الحقيقيات.

في ظل حكم بن علي هما المعلقون الرياضيون والهياكل الطبية، حيث تلقى المتخصصين في الرعاية الصحية في البلاد من النساء.

أرضية قوية

كانت تونس قد أبرمت في 2012 اتفاقية مع المركز الأميركي لمكافحة الأمراض في أتلانتا، والتي ساعدت تونس على إنشاء نظام إنذار مبكر لأوبئة الانفلونزا، وقد رأى المركز النور العام الماضي وتم تدريب الموظفين اللازمين بشكل كامل. وكنتيجة لذلك استفادت تونس منه بشكل كبير منذ ثمانية أشهر.

ولدى تونس مجالس صحية جهوية تعمل بشكل جيد وجميع المعلومات الواردة منها مركزية في وزارة الصحة. وقد تأكدت السلطات من الإبلاغ عن الحالات المشتبه فيها في أكثر المدن النائية. وعندما تم اكتشاف مجموعة صغيرة في جزيرة جربة الجنوبية، وهي منطقة سياحية معروفة جيدا، تم وضع الجزيرة تحت إغلاق صارم لأسابيع.

كما أن اتخاذ إجراءات الحظر السريعة والمحلية ساعد في وضع حد للوباء، حيث تم فحص درجات حرارة المسافرين القادمين من الخارج وطلب منهم ملء استمارة طبية، والتي سلموها إلى الشرطة، مما سمح للسلطات بتعقبهم أثناء إقامتهم في تونس.

والأسبوع الماضي، تم استدعاء سعيد إلى منصبها السابق من قبل رئيس حكومة تصريف الأعمال إلياس الفخفاخ، الذي كان قلقا للغاية بشأن زيادة حالات الإصابة بالفايروس منذ مطلع أغسطس الماضي، وقد تنفس العديد من التونسيين الصعداء بعد إقالة الدكتور محمد الشاوش المدير للجدل والذي حل محل بن سعيد العام الماضي.

تاريخيا، تفتخر تونس بالعديد من الأطباء والمتخصصين المدربين بكفاءة عالية وأيضا بامتلاكها معهد باستور، الذي تأسس عام 1893 على يد تشارلز نيكول عندما كانت البلاد مستعمرة فرنسية.

وحصل نيكول، بسبب اكتشافاته حول مرض التيفوس، على جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء أو الطب عام 1926. وتوفي في تونس عام 1936 وأهدى اسمه لمركز أبحاث الفايروسات الرئيسي بالبلاد، وهي مؤسسة حديثة مرموقة تتفاعل مختبراتها، التي يرأسها اليوم الدكتور هشام لوزير، مع الأبحاث التي تجريها شركات الأدوية الخاصة في تونس.

وفي هذه الدولة الصغيرة، يعرف الأطباء بعضهم البعض جيدا ويتفاعلون مهنيا واجتماعيا بسهولة كبيرة، كما يتفاعلون أيضا مع الخدمة المدنية. ويشير المطلعون إلى أن الجماعتين اللتين لم يتم تقييد حريتهما في التعبير

مخاض عسير للتغيير المنتظر في منظمة التجارة العالمية

ويؤكد مدير مركز الدراسات الاستباقية والمعلومات السياسية جيان أنه من الصعب قياس قدرة الأذى لدى الولايات المتحدة بالنسبة للعملية، ومعرفة إلى أي مدى يمكنها فعلا التشويش عليها وعرقلتها وإلى أي مدى يريدون ذلك أيضا. وقال "اعتقد أن ذلك يعني أمرا كبيرا مجهولا".

والتفكير بأن واشنطن لا تستبعد أن تكون الفترة الانتقالية أطول من المتوقع وأنها لا تريد تعيين أوروبي في المنصب.

وفي ترقب ما ستؤول إليه الأمور، يحافظ المرشحون على هدوئهم على غرار البريطاني ليام فوكس الذي أكد لوكالة الصحافة الفرنسية أن لديه "ثقة في آلية الاختيار"، أو الكينية أمينة محمد التي تقول إنه ليس لديها "أي سبب للشك".

بأنه لن يتم احترام آراءه.

مدير مؤقت أظهر تسييس هذه القضية. ويرى دبلوماسي غربي أن "السؤال المحوري هو إلى أي مدى يمكن أن يذهب البعض، مثلا عبر عرقلة وصول مرشح مقبول من جانب سائر الأعضاء".

وبعد رحيل أزيغيدو، يُفترض أن يتولى أحد مساعدي المدير الأربعة وهم أميركي وألماني ونيجيري وصيني، الإدارة المؤقتة للمنظمة لكن واشنطن وبروكسل لم تتمكنا من التوافق بهذا الشأن. وتعتبر إيفر فابري الباحثة في معهد جاك دولور أن



Roberto Azevêdo
WTO Director-General

واعتبر إلسغ في تصريح لوكالة الصحافة الفرنسية أنه "من الممكن أن يكون العديد من أعضاء منظمة التجارة العالمية يريدون الانتظار إلى ما بعد الانتخابات، على أمل أن تتغير الإدارة".

وقدّر مدير المنظمة البرازيلي الجنسية في منتصف مايو، مفاجأة بإعلانه التخلي عن منصبه قبل الموعد وأنه سيرتك مهامه قبل عام من نهاية ولايته لأسباب عائلية، وليبدا ثمانية مرشحين لخلافته بينهم ثلاثة أفارقة وأوروبيان وآسيويان ومرشح من أميركا اللاتينية في إعداد العدة للفوز بالمنصب.

ويعتقد محللون أن التوترات الجيوستراتيجية في مناطق كثيرة من العالم والتسييس المتزايد لانتخابات رؤساء المنظمات الدولية قد تعقد عملية تعيين خلف لأزيغيدو.

ومن المقرر أن تجري منظمة التجارة العالمية من 7 إلى 16 سبتمبر سلسلة أولى من المشاورات مع كل من أعضائها على حدة بهدف استيعاب المرشحين الثلاثة الأقل حظا للحصول على دعم توافقي. وستلها سلسلتا مشاورات على الأرجح في أكتوبر ونوفمبر. إلا أن عجز الدول الأعضاء على التوافق في أواخر يوليو لتعيين